جامعة تكريت
كلية التربية للعلوم الانسانية
قسم اللغة العربية

المرحلة الثالثة
المادة: نقد قديم عنوان المحاضرة: فكر النقد العربي القديم
اسم التدريسية: راوية عبدالله محمد

المحاضرة السابعة

إن نضبة الطبع والصنعة ، نضبة في الفكر الإنسا ، شغلت مكاناً بارزاً في النظرية الشعرية لصلتها

الوطيدة بتحديد مفهوم الشعر ، وتوضيح كثيراً من قضاياه ، وقد أثيرت هذه القضية منذ العصر اليوناني ، ثم انتقلت إلى العرب ، فكتبوا فيها بحوثاً مستفيضة ، تحدثوا فيها عن معاييرها الجمالية التي تعد من أهم مقومات العمل الأدبي .

وليس من شك في أن (أرسطو) كان أول من أشار إلى أهمية الطبع والموهبة في الشعر، كما كان أول استخدم مصطلح لصناعة الشعر ، وذلك في قوله ، " إنا منكلمون الآن في صناعة الشعر وأنواعها ، ومخبرون أي قوة لكل واحد منها (...)[1]، ويضيف :" غير أن الناس عندما يوصلون وزن صناعة الشعر (...)[2] ، ثم كرث أرسطو مصطلح (صناعة) في غير ما موضع من كتابه (الشعر)[3].

وينقل عن (فليب سد□) قوله إن الإنجليز التقوا مع اليونانيين في تسمية الشاعر (صانعاً)[4] ويرى الكتور محمد غنيمي هلال أن هذا الالتقاء كان من أثر (أرسطو) و(هوراس) ؛ فترجم مؤلفيهما (فن الشعر) ، و(قصيدة فن الشعر) ، كما كان مذهب أكثر نقاد القرن السادس عشر في إيطاليا يقوم على أن الشعر يتطلب التعلم والصنعة ، " ويعتمد عليها أكثر مما يعتمد على الإلهام أو الموهبة"[5].

وقد عالج النقاد العرب قضية الطبع والصنعة قريباً من هذا الاتجاه ، إلا أنهم لم يعطوا تعريفاً واضحاً للطبع، وإنما ربطوا مفهومه – أحياناً –بالنص ، وأحياناً أخرى بالشاعر فتحدثوا عن الشعر المطبوع ، والشعر المطبوع ، دون أن يوضحوا دلالة هذا المفهوم ، وبعبارة أخرى : هل أطلقوا هذا المفهوم لوصف العمل الإبداعي؛أم لوصف صاحبه؟ ويبدو أن انشغالهم بالجانب الوظيفي للطبع ، هو الذي أدى إلى عدم اعتنائهم بضبط مصطلح الطبع، وينجلى هذا الانشغال في وجهين أثنين :أولهما أن النقاد العرب اعتبروا الطبع شكلاً جديداً للبحث عن دواعي الإبداع وبواعثه النفسية ، وثانيهما ، أنهم نظروا إلى الطبع بوصفه رد فعل للصنعة والتكلف.

أما مصطلح (صناعة) ، فقد ذكر جمال الدين الشيخ " أن النقاد العرب يقصدون بالصنعة نفس المعنى المتضمن لدى أرسطو ، فهم يستعملونها بالمعنى الحرفي للمصطلح "[6] ، ويرجع استعمال مصطلح (صناعة) عند العرب إلى وقت مبكر ، وربما يعتمد إلى زمن الخليفة عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – الذي روى عنه أنه قال: " خير صناعات العرب أبيات يقدمها الرجل بين يدي حاجته ، يستميل بها الكريم ، ويستعطف بها اللئيم ".[7]

/

وقد أهتم العرب بقضية الطبع والصنعة ، وجعلوها أساس بحثهم وفي هذا المجال ، ودرسوها على أساس المقابلة بين الطبع والموهبة من جهة وبين الصنعة والتكلف من جهة أخرى ،وقد أوضح النقاد تفصيلاً أثر الموهبة في الإنتاج الأدبي ، ولكنهم رأوا أن الموهبة وحدها لا تكفي في عملية الإبداع، "بل لابد من الدربة والمرن ، وطول الممارسة وسعة الإطلاع ، والحفظ لروائع الشعر "[1].

وعالج النقاد المغاربة قضية الطبع والصنعة قريباً من هذا الاتجاه ، فقد اعتنوا بها وخصوها بالبحث والدراسة، ونذكر منهم : أبا إسحاق الحصري ، وابن رشيق القيرواني ، وابن شرف القيرواني ، وحازم القرطجني ، وأبا محمد القاسم السجلماسي.

تحدث أبو إسحاق الحصري عن قضية الطبع والصنعة ، وأورد جانباً كبيراً من الأخبار التي تتعلق بها[2] ، يقول الكلام الجيد الطبع مقبول في السمع ، قريب المنال بعيد المنال ، أنيق الديباجة ، رقيق الزجاجة ، بادئ من نهم سامعه كأنه من نهم صانعه ، والمصنوع مثقف الكعوب ، معتدل الأنبوب ، بطرد ماء البديع على جنباته، ويجول رونق الحسن في صفحاته كما يجول السحر في الطرف الكحيل ، والأثر في السيف الصقيل ، وحمل الصانع شعره على الإكراه في التعمل وتنقيح المباني دون إصلاح المعاني يعطي أثر صنعته ويطفئ أنوار صبغته ، ويخرجه إلى فساد التعسف ، وقبح التكلف ، وإلقاء المطبوع ببدء على قبول ما يبغيه هاجسه ، وتنفسه وساوسه ، من غير أعمال النظر ، وتدقيق الفكر يخرجه إلى حد المشتهر الرث ، وحيز الغث ، وأحسن ما أجرى إليه ، وأعول عليه التوسط بين الحالين ، والمنزلة بين المنزلتين ، من الطبع والصنعة[3]

يشير الحصري في هذا النص – إلى نوعين من الشعر : مطبوع ومصنوع ، فالمطبوع هو الكلام الجيد الذي يقبله السمع لعذوبة ألفاظه ورقة معانيه ، اما المصنوع فهو الكلام الذي أخذه صاحبه بالتجويد والتنقيح ، وأكثر فيه من الصور البيانية والبديعية ، إلا أنه ينبغي لصاحبه المصنوع أن يبتعد عن التكلف ، وذلك بتهذيب معانيه ، وإختيار ألفاظه ،كما ينبغي لصاحب المطبوع ألا يقبل كل ما يهجس به خاطره من غير أمعان النظر والفكر وينتهي الحصري إلى التوسط في مسألة الطبع والصنعة.

كما نعرض ابن رشيق لدراسة قضية الطبع والصنعة ، وخصها بباب مستقل في كتابه العمدة ، أستهله بالحديث عن حد الشعر المطبوع والموضوع ، يقول : "المطبوع ، هو الأصل الذي وضع أولاً ، وعليه المدار ، والمصنوع وإن وقع عليه هذا الاسم ، فليس متكلفاً تكلف أشعار المولدين ، لكن وقع فيه هذا النوع الذي سموه الصنعة من غير قصد ولا تعمل ، لكن بطباع القوم عفواً ، فاستحسنوه ، ومالوا إليه بعض الميل ، بعد أن عرفوا وجه اختباره على غيره ، حتى صنع زهير الحوليات على وجه التنقيح والتثقيف ، يصنع القصيدة ثم يكرر نظره فيها خوفاً من التعقب[1].

يرى ابن رشيق أن المطبوع هو الأصل الذي يدور عليه الكلام ، وبعبارة أخرى : المطبوع هو الدفقة الشعورية الأولى التي تأتي للشاعر بعفوية وبساطة دونما تكلف أو تصنع ، أما المصنوع فينقسم إلى قسمين : الأول جاءت صنعته عفواً من غير قصد ولا تعمل مثلما صنع زهير ابن أبي سلمى في الحوليات ، والثاني جاء عن طرق التصنع والافتعال.

والذي لا شك فيه "أن مفهوم المطبوع قد تبلور عند ابن رشيق ، وهو ما لم نعهده عند الجاحظ[2]، فهو عند ابن رشيق "عمل يقوم على التلقائية عند المبدع دون إجهاد نفس ، وهو يقابل المصنوع"[3].

على أن ابن رشيق يميز بين ضربين من المصنوع ، أول ما جاءت صنعته عفواً ، والصنعة في هذا المستوى تطوير للطبع وتجاوزاً له ، وقد ضرب ابن رشيق لذلك مثلا بحوليات زهير بن أبي سلمى الذي كان " يصنع القصيدة ، ثم يكرر نظره فيها خوفاً من التعقب بعد أن يكون قد فرغ من عملها في ساعة ، أو ليلة ، وربما رصد أوقات نشاطه ، فتباطأ عمله بذلك"[4].

وينبغي أن ننبه على أن الصنعة في هذا المستوى لا تعني عند ابن رشيق تدبر أمر الوجوه البلاغية التي يستخدمها الشاعر فحسب ، وغنما تشمل إضافة إلى ذلك "فصاحة الكلام وجزالته ،وبسط المعنى وإبرازه ،

.258

وإتقان بنية الشعر ، وإحكام عقد القافية ، وتلاحم الكلام بعضه ببعض"[1] ويمثل ابن رشيق لهذا النوع من الصنعة المنظمة بقول الحطيئة[2]:

فلا وأبيك ما ظلمت قريع *** بأن يبنوا المكارم حيث شاؤوا .

ولا وأبيك ما ظلمت قريع *** ولا برموا بذلك ولا أساؤوا.

بعثرة جارهم أن ينعشوها *** نبغير بعدهم نعم وشاء.

نبني مجدها ويقيم نبها *** ويمشي إن أريد به المشاء.

فإن الجار مثل الضيف يغدو *** لوجهته وإن طال النواء.

فالصنعة في هذا النص ليس عيباً ،بل نعد ضرباً من ضروب شعرية النص الدالة على جودته ؛ فالأبيات تبدو محكمة من حيث النظم والقافية ،كما أن تكرار الشاعر لصدر البيت الأول :"فلا وأبيك ما ظلمت قريع "، لم يضعف أسلوب القصيدة وإنما أكد المعنى ، وأكسبه عذوبة وسلاسة، ويمثل ابن رشيق لهذا النوع من الصنعة – أيضاً – بقول أ ذويب الهذلي ، يصف حمر والوحش والصائد:

فوردن والعيون مقعد را الض *** ـباء خلف النجم لا ينتلع.

نشرعن في حجرات عذب بارد *** حصب البطاح نغيب فيه الأكراع .

نشربن ثم سمعن حسا دونه *** شرف الحجاب وريب قرع يقرع .

فنكرنه فنفرن فامترست به *** هو جاء هادية وهاد جر شع .

يعلق ابن رشيق على هذه الأبيات بقوله :" فأنت ترى هذا النسق بإلغاء، كيف اطرد له ، ولم ينحل عقده، ولا أختل بناؤه ، ولولا ثقافة الشاعر ، ومراعاته إياه ، لما تمكن له هذا التمكن"[3].

وإذا عدنا إلى النص نجد أن الشاعر أعتمد على التدوير الذي جعل الإيقاع متصلاً إلى ابنه ، علاوة عل توزيع المقاطع بما تحمله من حمولة معنوية توجه مقصدية النص ، يضاف إلى ذلك حركة الأفعال التي أسنهل ا

الشاعر كل بيت ؛ ذلك أن الشاعر صاغ صدر كل بيت صياغة جمالية ساهمت في تكبز معناه في الأذهان . فأفعال : " نوردن ، نشرعن ، نشربن ، سمعن . كلها نصور الحركة السريعة التي تلي ثان نصل إلى أقصاها في توالي الأفعال الباقية .

ومهما يكن من أمر ؛ فقد أسطرف ابن رشيق أبيات ذويب الهذلي، وقال : ان العرب استحسنت الصنعة التي تتخلل هذه الأبيات ، لأها تدل على "جودة شعر الرجل ، وصدق حسبه ، وصفاء خاطره"[1]

وأما الضرب الثا من الكلام المصنوع ، فيتمثل عند ابن رشيق في الإكثار من المحسنات البديعية ، وقد وازن ابن رشيق بين البحتري ،وأ تمام وانتهى إلى أهما من أهل الصنعة ؛ فالبحتري كان يريد الصنعة دونما كلفة ولا أجهاد نفس ، بينما كان أبو تمام "يذهب إلى سهولة اللفظ ، ما يملأ الأسماع منه مع التصنيع المحكم طوعاً وكرهاً ، ويأ الأشياء من بعيد ، ويطلبها بكلفة ، ويأخذها بقوة "[2].

لقد وازن ابن رشيق بين البحتري ،وأ تمام وخلص إلى أهما من أهل الصنعة ؛ فالأول كان يبطلب الصنعة دونما كلفة ولا مشقة ، والثا يتطبق على مذهب أ تمام فأنه لا يتطبق تمام الانطباق على مذهب

البحتري ، لأن أكثر النقاد يجمعون على أن البحتري هو إمام أهل الطبع من المحدثين ، وحامل لواء الشعر المطبوع ببدا أن هذا الري لا يعني أننا ننفي الصنعة عن البحتري نفيا تاما ؛ فطلبه لألوان البديع من جناس وطباق، واعتكافه على شعره بالتجويد والتنقيح والتهذيب ضربان من تعاطي الصنعة في الشعر ،ولكنها تبقى صنعة خفيفة يغلب عليها الطبع ،فتتوارى في ظلاله" [3].

ثم ينتقل أبن رشيق -بعد ذلك- إلى الحديث عن عبد الله بن المعز الذي امتاز بصنعته " خفيفة لطيفة لا تكاد تظهر في بعض المواضيع إلا للبصير بدقائق الشعر "[4] .

يشير أبن رشيق إلى أن قدرة الشاعر المبدع تكمن في حسن استغلال الجودة البلاغية ، وإحكام الصنعة ، لان الصنعة يمكن أن تملأ النص الشعري شعرية مثلما يمكن أن تسلب هذه الصنعة عنه"[5] وقد أعجب أبن رشيق بمذهب أبي تمام ، ومسلم بن الوليد ، ورأى فيهما مثالا يقتدى به لما " فيهما من الفضيلة لمبتغيها ، ولأنهما طرقا